الجمهورية العربية السورية
جامعة دمشق
كلية الآداب والعلوم الإنسانيّة
قسم اللغة العربيّة وآدابها

علم الجمال-السنة الرابعة
د . هديل نزار أبو آذان
المحاضرة الأولى

# علم الجمال

ينتمي علم الجمال إلى العلوم المعياريّة التي تسعى إلى وضع قواعد ومعايير للنشاط الإنسانيّ ولما ينبغي أن يكون عليه، وتسمى، أيضاً، علوم القيم، وتتضمّن:

١. **علم المنطق** الذي يتناول قواعد التفكير السليم، وقيمته **الحقّ**.
٢. **علم الأخلاق** الذي يحدّد مبادئ العمل والسلوك الإنسانيّ، وقيمته **الخير**.
٣. **علم الجمال** الذي يسعى إلى تحديد معايير جمال الموضوعات، وقيمته الأساسيّة **الجمال**.

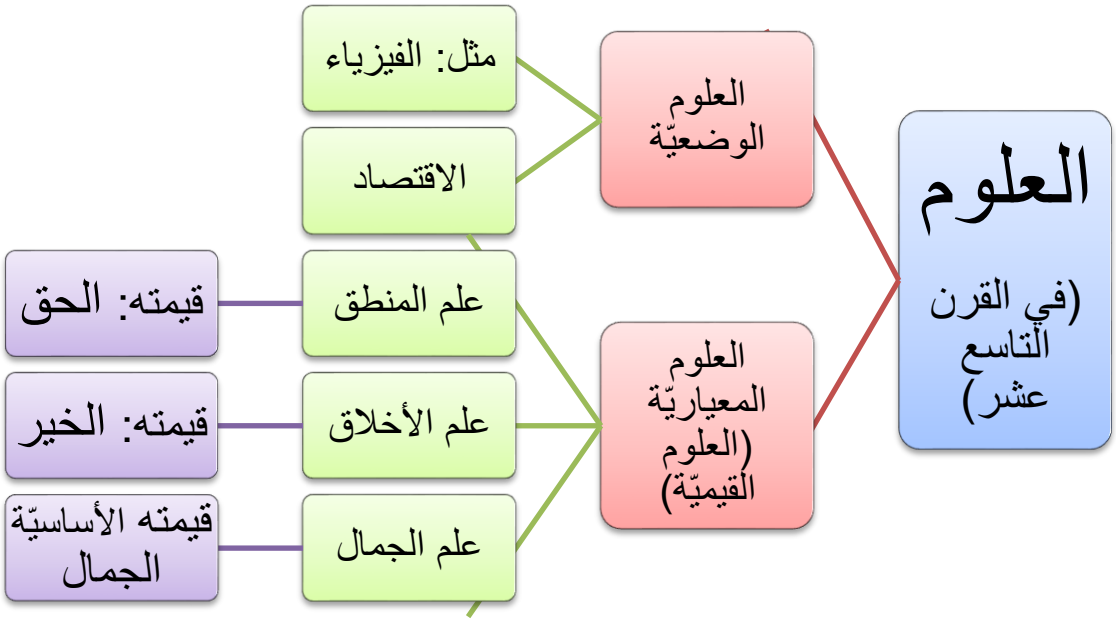

ويتجلّى الجمال في الموجودات كلّها؛ في موضوعات الطبيعة الحيّة (الأزهار، الغزال،...) وغير الحيّة (البحار، الجبال،...)، وفي الإنسان وأعماله وآثاره الفنيّة في الرسم والنحت والموسيقا والأدب وغيره من الفنون، ولا يمكن لعلم الجمال أن ينصرف إلى بحث خصائص الجمال التي تميّز كلّ موضوعٍ أو صنفٍ من الموضوعات، ولكنه يتوخى معرفة أحكام الجمال العامة التي تحدّد طبيعته ومصادره ووظائفه.

وأبرز موضوعات علم الجمال الظواهر الجماليّة المختلفة في الحياة والفنّ، وقوانين الوعي الجماليّ، والنشاط الجماليّ وعلاقته بسائر النشاطات الإنسانيّة الأخرى، والإبداع الفنّي، والمذاهب المختلفة في التفكير الجماليّ والفنّيّ.

وتعدّ دراسة الفنّ أهم موضوعات علم الجمال بوصفه أرقى صور النشاط الجماليّ التي تعبّر بصورة مكثفةٍ ومركّزة عن ماهية الجميل. وبهذا المعنى يؤلف علم الجمال الأساس النظريّ الفلسفيّ الشامل للدراسات الفرعيّة الخاصة بكلّ نوع من الأنواع الفنيّة (مثل البلاغة في الأدب). على أنّه لم يظهر بوصفه علماً للفنّ قبل القرن الثامن عشر.

للجمالِ مصدرانِ رئيسانِ هما: الطَّبيعةُ والفنُّ، والإنسانُ موضوع من موضوعات الطَّبيعةِ، وما يبدعُه الإنسانُ من جمالٍ هو الفنُّ.تختلفُ مادَّةُ هذا الفنِّ؛ فقد تكونُ مادَّتُه الصَّوتَ فتكون الموسيقا، وقد تكونُ مادَّتُه الكلمةَ فيكونُ الأدب، وقد تكونُ مادَّتُه اللَّونَ فيكونُ الرَّسم، وقد تكونُ مادَّتُه الحجرَ فيكونُ النَّحت ، إذن تختلف الفنون في مادتها الأوليّة ولكنّها تتفق في إبداع الجمال.

**أيّهما أجملُ؛ الطَّبيعةُ (الواقعُ) أمِ الفنُّ؟**

**أيّهما أجملُ؛ المشهد الطَّبيعيُّ الواقعيُّ أمِ الفنُّ الَّذي حاكى هذا المشهد سواءٌ أكانَ هذا الفنُّ لوحةً أمِ قصيدةً أمِ لحناً أمِ تمثالاً؟**

**في الواقع:** إذا قمنا بزيارة دمشق القديمة وتجولنا في أزقتها وعرجنا على معالمها الأثريّة سنشعرُ أنّا نتجوّل في عالم ساحرٍ من الجمالِ والجلالِ.

**في الفنِّ**: إذا قرأنا مقطعاً من قصيدةَ **نزار قبَّاني** (الوضوء في ماءِ العشقِ والياسمين) التي يصوّر فيها دمشق فيقولُ:

ينطلقُ صوتي هذه المرة من دمشق

ينطلقُ من بيت أُمِّي وأبي

في الشَّامِ تتغيَّرُ جغرافيَّةُ جَسَدي

تُصبحُ كُرَيَّاتُ دمي خضراء

وأبجديَّتي خضراء

في الشَّامِ يَنْبُتُ لِفمي فمٌ جديد

ويَنْبُتُ لِصوتي صوتٌ جديد

وتُصبحُ أصابعي

قبيلةً من الأصابع

...

أدخلُ صحنَ الجامعِ الأموي

أسلِّمُ على كلِّ مَن فيه

بَلاطةً بلاطهْ

حمامةً حمامهْ

أتجوَّلُ في بساتينِ الخطِّ الكوفيّ

وأقطفُ أزهارًا جميلةً من كلامِ اللَّه

وأسمعُ بعينيَّ صوتَ الفُسَيْفُسَاء

وموسيقا مسابحِ العقيق

تأخذني حالةٌ من التَّجلِّي والانخطاف

فأصعدُ دَرَجاتِ أوَّلِ مِئذنةٍ تُصادفُني

منادياً:

حيَّ على الياسمين

...

أتجوَّلُ في حاراتِ دمشقَ الضَّيِّقهْ

تستيقظُ العيونُ العسليَّةُ، خلفَ الشَّبابيكِ، وتسلِّمُ عليّ

تلبسُ النُّجومُ أساورَها الذَّهبيَّهْ

تحطُّ الحمائمُ من أبراجِها

وتسلِّمُ عليّ

تخرجُ ليَ القططُ الشَّاميَّةُ النَّظيفهْ

الَّتي وُلدتْ معَنا

وراهقتْ معَنا

وتزوَّجتْ معنا

لتسلِّمَ عليّ

...

أتغلغلُ في سوقِ البزوريَّهْ

مُبْحِرًا في سُحُبِ البَهَار

وغمائمِ القرنفُلِ

والقِرْفَةِ

واليانسونْ

أتوضَّأُ بماءِ الوردِ مرَّهْ

وبماءِ العشقِ مرَّات

وأنسى –وأنا في سوقِ العطَّارين–

**جميعَ مستحضرات (نينا ريتشي)**

**و (كوكو شانيل)**

**ماذا تفعلُ بي دمشق؟!**

**كيفَ تغيِّرُ ثقافتي وذوقي الجماليّ؟!**

**ويُنسيني رنينُ طاساتِ (عرقِ السُّوس)**

**كونْشِرتو البيانو لرحْما نينوفْ**

**كيفَ تُغيِّرُني بساتينُ الشَّام؟!**

**فأُصبحُ أوَّلَ عازفٍ في الدُّنيا**

**يقودُ أوركِسترا**

**من شجرِ الصَّفصاف!**

**ما هي سمات المشهد الجمالي في قصيدة نزار قبّاني (في الفنّ)؟**

- انتقائيٌّ من الواقعِ.

- تكثيفُ الجمالِ (أمامي لوحةٌ كبيرةٌ جدًّا بمساحةِ المدينةِ القديمةِ اختصرَها في عددٍ قليلٍ من الصَّفَحاتِ).

- محاكاةٌ لما نُحبُّ أن يكونَ عليه الواقعُ.

- الجمالُ في الفنِّ يعيشُ أكثرَ، يُخَلَّدُ أو نُحاولُ أن نُخلِّدَهُ، في حين أنَّه في الواقعِ قد يذيل هذا الجمالُ معَ الزَّمنِ ويزول .

دمشق جميلة في الواقع ولكنّ قصيدة نزار أضفت على جمال دمشق الواقعي رقّة الشعور الإنسانيّ وسحر البيان الشعريّ، وكأننا نبصر جمال دمشق بعيون نزار.

إذن لا يمكنُنا المقارنةُ بينهما على الرَّغمِ من أنَّ هذه المقارنة شغلت حيّزًا كبيرًا من اهتمام الفلاسفة وعلماء الجمال .

فربَّما أقفُ عندَ قصيدةٍ تصوّر جمال مشهدٍ ما فتكون الصورة الفنيّة أو الوصف أرقى من جمال المشهد في الواقع، بل يمكن للفنان أن يحوّل القبح أو التشوّه الموجود في الواقع إلى صورة فنيّة جميلة كتلك التي رسمها

**ابنُ الرُّوميّ** في وصفِ رجلٍ أحدبَ حين قال:

**غَـارَتْ أَخَـادِعُـهُ وَرَقَّ قَـذَالُـهُ فَـكَـأَنَّـهُ مُتَـرَبِّـصٌ أَنْ يَضَـعُفَـا**

**وَكَأَنَّمَـا صَـفَعَتْ قَفَـاهُ مَرَّةً فَأَحَسَّ ثَـانِيَـةً لَهَـا فَتَجَمَّعَا**

**سؤالٌ جدليٌّ آخر:**

**هل الجمالُ في الموضوعِ أم في الذَّات؟**

يكمن الجمالُ بوصفه قيمة في العلاقة التفاعليّة بين الموضوعِ والذَّاتِ فثمة أسس في الموضوع تجعله جميلاً ولكن الذات هي التي تعطيه قيمته ومن هنا يأتي اختلافُ الأذواقِ في تقديرِ الجمالِ.

**من أينَ تبدأُ العلاقةُ الجماليَّةُ بينَ الذَّات والموضوع؟**

الموضوعُ يجذبُ الذَّاتَ بدايةً، ولكن الذَّات المتذوّقة تدركُ هذا الموضوعَ، وبقدرِ ما تتمتَّعُ هذه الذَّاتُ بثقافةٍ جماليَّةٍ تكون معايشتها لهذا الموضوعِ أشدّ كثافةً وغنًى، معَ أنَّنا في هذه الموضوعاتِ لا نستطيعُ أن نكونَ دقيقينَ؛ فهي أمورٌ ترتبط بالرُّوحُ، ولهذا لا نستطيعُ أن نفسّرَها تمامًا.

ولعلّ قصة الشاعر **عليُّ بنُ الجَهْمِ** خير مثال على أثر الثقافة الجماليّة في حياة الإنسان وفنّه؛ فقد كان شاعرنا بدويًّا يعيش في بيئة صحراويّة، فلمّا قَدِمَ إلى بغدادَ أوَّلَ مرَّةٍ آثرَ أن يبدأَ عهدَه فيها بمدحِ خليفتِها المتوكّلِ فأنشدَ في حضرته قائلاً :

**أَنْـتَ كَـالْكَلْـبِ فِيْ حِفَـاظِـكَ لِلْوُدْ دِ وَكَـالتَّيْسِ فِيْ قِرَاعِ الْخُطُوْبِ**

**أَنْـتَ كَالدَّلْوِ لَا عَدِمْنَـــاكَ دَلْـــوًا مِنْ كِبَـــارِ الدِّلَا كَثِيْـرَ الذَّنُـوْبِ**

فعرَفَ المتوكِّلُ حسنَ مقصدِه وخشونةَ ألفاظِه؛ لِملازمتِه البادية وعدمِ المخالطةِ، فأمرَ له بدارٍ على شاطئِ دِجْلَةَ، فيها بستانٌ وجسرٌ قريبٌ منه، وكانَ الأُدباءُ والشُّعراءُ يمرُّونَ عليه ويجالسونه، كما أمرَ له بطعامٍ لطيفٍ، فكانَ يرى حركةَ النَّاسِ ولطافةَ الحضرِ، فأقامَ ستَّةَ أشهرٍ على ذلك، وبعدها استدعاه الخليفةُ فأنشدَه قصيدته الشهيرة التي يقول فيها:

**عُيُوْنُ الْمَهَا بَيْنَ الرُّصَافَةِ وَالْجِسْرِ ... جَلَبْنَ الْهَوَى مِنْ حَيْثُ أَدْرِيْ وَلَا أَدْرِيْ**

**أَعَدْنَ لِيَ الشَّوْقَ الْقَدِيْمَ وَلَمْ أَكُنْ ... سَلَوْتُ وَلَكِنْ زِدْنَ جَمْرًا عَلَى جَمْرِ**

**سَلِمْنَ وَأَسْلَمْنَ الْقُلُوْبَ كَأَنَّمَا ... تُشَكُّ بِأَطْرَافِ الْمُثَقَّفَةِ السُّمْرِ**

**وَقُلْنَ لَنَا نَحْنُ الْأَهِلَّةُ إِنَّمَا ... نُضِيْءُ لِمَنْ يَسْرِيْ بِلَيْلٍ وَلَا نَقْرِيْ**

**فَلَا بَذْلَ إِلَّا مَا تَزَوَّدَ نَاظِرٌ ... وَلَا وَصْلَ إِلَّا بِالْخَيَالِ الَّذِيْ يَسْرِيْ**

فقال لهم المتوكل : خشيت عليه أن يذوب رقّةً ولطافةً.

## ما فائدةُ علمِ الجمالِ؟ ولماذا ندرسُ علمَ الجمالِ؟ وهل أستطيعُ أن أستفيدَ من هذا العلمِ في المجتمعِ؟

- ففي الرِّياضيَّاتِ أنا أدرسُ قواعدها وأحلّ مسائلها؛ لأنَّني قد أفيدُ من هذا العلمِ في الهندسةِ، أو في البناءِ، وفي مجالاتِ الحياةِ كلّها، فماذا أفيد من علم الجمال؟
- يعدّ علم الجمالِ الأدبيّ فرعًا من فروع النقد الأدبيّ يمكننا من فهم النُّصوصِ الأدبيَّةِ وتحليلِها جماليًّا، وفهم طبيعة التجربة الإبداعيّة وتلقيها عند جمهور المتلقيّن. ومن خلال هذا الفهم نستطيعُ أن نرتقيَ بالذَّوقِ العامّ من خلالِ معرفةِ ماهيَّةِ القيمةِ الجماليَّةِ.
- إذن: إنْ كنتُ أعرفُ ماهيَّةَ الإحساسِ بالجمالِ، وتأثيرَ هذا الجمالِ على المجتمعِ فربَّما أستطيعُ فَهْمَ هذه القوانينَ وإدراكَها، وأرتقي بالذَّوقِ العامّ؛ لأنَّ تدنِّي الذَّوقِ العامّ في الأدبِ والفنون يؤدِّي إلى تدنِّي الأخلاقِ.
- ويوظف علمَ الجمالِ في مجمل النشاطات البشريّة، ففي مجال التسويق والإعلان نلحظُ أنَّ الإعلانَات . التي تقوم على استغلال علم الجمال . تجذِبُنا إلى المنتجات حتى تلك التي لافائدة منها، وقد تحوّلُنا إلى أشخاصٍ استهلاكيّيْنَ !!

🕮 وأيضًا نَفِيْدُ من علمِ الجمالِ في الإعلامِ، ✍ فمثلًا: في نشَراتِ الأخبارِ يهتمُّ القائمون على المحطات الإخباريّة بالإبهار البصريّ والشَّكلِ الجماليِّ للخَبَرِ والنَّشرةِ والمذيعِ؛ لأنَّهم يدرسونَ تأثيرَ الجمالِ على العقلِ فيستغلون ذلك في توجيه الرأي العام تبعًا لسياسة القناة.

🕮 ويتبدّى علم الجمال في أجمل تجلياته في فنّ العَمَارةِ طريقةِ البناءِ، فالبيوتِ الدِّمشقيَّةِ القديمة، مثلًا، تمثّل لوحاتٍ فنِّيَّةً ناطقةً بالسِّحْرِ والجمالِ.

➢ وأهمُّ مجالٍ من مجالات علم الجمال وأكثرها تأثيرًا على رقي المجتمعات وازدهارها التَّربيةُ الجماليَّة؛ فإذا أُنْشِئَ الطِّفْلَ على رؤيةِ الجمالِ ومعاينته في كلّ ما حوله تكوّنت لديه روحٌ رقيقةٌ شفَّافةٌ تهتمُّ بالجمالِ وتتأثَّرُ لتشويهِه وتعمل على إعادة إنتاجه في الفنّ والسلوك. ولعله من الصعب إعادة بناء الطِّفلِ في مجتمعِنا بناءً أخلاقيًّا؛ لأنَّ الأخلاقَ لا تلقّن وإنما تغرس في النفوس وتسقى بالقدوة الحسنة، فمثلًا: في مجتمعٍ منهار أخلاقيًّا إذا قلنا للطِّفلِ: الغشُّ حرامٌ، ولكنَّه يرى والدَه يغشُّ في عملِه وفي بيتِه، لن نرسّخَ هذه القيمةَ الأخلاقيَّةَ فيه مهما حاولنا؛ فالفسادُ الأخلاقيّ الذي يحيط به سيجعلُ هذا الأمرَ صعبًا للغايةِ، ولكن إذا أعدْنا تربيةَ الجيلِ على الجمالِ من دونِ أن نُلَقِّنَهُ تلقينًا سنجدُ فرقًا شاسعًا؛ فلذلك علينا أن نعرّضَه لموضوعاتٍ جماليَّةٍ؛ لترقَّ روحُه، وإذا رقَّتْ روحُه عادَ إلى فِطْرَتِهِ، وإذا عادَ إلى فطرتِه السليمة عادَ إلى الأخلاقِ، وهذا ما قالَه **شيلر** في كتابِه التَّربية الجماليَّة: " إذا أردْنا أن نعودَ إلى عالمٍ مثاليٍّ يجبُ أن نُعِيْدَ تربيةَ أطفالِنا على الجمالِ ".

🕮 فإذا عادوا إلى الجمالِ رقَّت أرواحُهم، وعادُوا إلى الفِطرةِ، والفطرةُ تقومُ على تكريم الذات الإنسانيّة وإعلاء شأن مكارم الأخلاقِ.